لتنفس باسل في الغربة . فعاد الى الوطن ، تاركا جامعته حيث كان يحضر لنيل شهادة الدكتوراة ، والنار من تحت مرجل حماسه الفوار ، متوقدة .

ولكن حالة الصراع الداخلي التي كانت تعاني منها حركة القوميين العرب — بعد ان شاخت مفاهيمها الفكرية والسياسية وتثلمت أسلحتها التنظيمية وتجاوزت المرحلة أساليبها النضالية — لم تمكنها من استيعاب طموحات باسل الجديدة . كما ان « التوجه الفلسطيني » لدى معظم من لم يصب « بالتعب الثوري » من قيادات الحركة ، لم يمكنهم ، في ظل اوضاعهم الحرجة ، من الاسهام في وضع المشاريع النضالية الخاصة بباسل موضع التنفيذ . ولما تأكد له — خاصة بعد أن عاد البعث للسلطة في العراق — ان حصان العمل الوطني الذي كان يراهن عليه يمر في فترة نقاهة تمنعه من الحركة الواسعة النشطة ، قرر ان العام والنصف المنصرمين منذ عودته للوطن يجب ان لا يطولا أكثر . وهكذا عاد ادراجه الى الولايات المتحدة في مطلع العام ١٩٦٩ لمتابعة التحضير للدكتوراة ثم انتقل ، مع بداية العام ١٩٧٠ ، ليحاضر في احدى جامعات كندا تحت ضغط اعتبارات تتعلق بأوضاع مالية غير مريحة كان وعائلته يمران بها .

وكان واضحا ، عندما تجدد لقاؤنا في البرته — كندا منذ آب (أغسطس) ١٩٧٠ ، انكباب باسل على مراجعة تجارب الماضي وتنمية قدراته الذاتية تمهيدا لدور ما يلعبه في المستقبل . كما كان واضحا ايضا ان باسلا قد نجح في تطوير وتجديد بعض منطلقاته الفكرية ومفاهيمه السياسية باتجاه اليسار الملتزم بحيثيات الاشتراكية العلمية وبمضامينها والنتائج المترتبة عليها نظريا ونضاليا . وقد ترافق ذلك مع تولي باسل لمسؤوليات تنظيمية قيادية ضمن اطار العمل الخارجي الخاص « بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » في امريكا الشمالية .

ولحظة وصل « قطاره » الاكاديمي الى آخر « محطاته » ، قفل باسل عائدا الى الوطن بعد ان أجيز ، في اواخر العام ١٩٧١ ، دكتورا في العلوم السياسية من الجامعة الاميركية في واشنطن . ومنذئذ بدأ باسل يحضر نفسه للقفز من فوق الحاجز الاخير .

وصل باسل الى الوطن والجو السياسي العام يعبق برائحة دخان الهزيمة الذي انعقد ، في غياب حرارة الانتصار وحضور برودة التراجع الثوري ، غيوما وسحبا حجبت شمس الثورة ولبدت سماء المنطقة وانهمرت مطرا من اليأس جرف في اندفاعه الكثيرين . ففي العام ١٩٧٢ ، نجحت معظم النظم العربية في تمزيق تحالفاتها الدولية وتفتيت تضامن معسكرها العربي وتشتيت جبهاتها الداخلية . وكان ذلك كله في اعقاب انزال الستارة على مسرحية « عام الحسم » .

وأما حركة المقاومة الفلسطينية — أمل الثوريين العرب ومن ضمنهم باسل — فكانت مطرودة وجريحة ومطاردة . وكان جواد « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » — وهو موضع رهان باسل المحدد — منهكا ومدمى بفعل السياط الذاتية والموضوعية التي انهالت عليه بالضرب المبرح .

وكان الرعب قد ساد وهيمن . فقارب النجاة الذي احتمت فيه بقايا الثورة الفلسطينية غدا عرضة لامواج الهجمة الامبريالية — الاسرائيلية — الرجعية ، العاتية . وحرب الابادة — غير المتكافئة — ما عادت خفية . فقد أعلن عنها دق أجراس الاغتيال السياسي طوال المسيرة الجنائزية الموحدة التي حملت اشلاء غسان كنفاني ووائل زعيتر ومحمود الهمشري انطلاقا من بيروت ، مرورا بروما ، وانتهاء بباريس . وغالبا ما كانت جوارح الموت الواغد في الرسائل المتفجرة او الطرود الملغومة تكتفي بتمزيق الوجوه وقضم الاصابع ونقر الاذان وفقء العيون او اقتلاعها .